

الحضارة العربية الإسلامية وأثرها الإيجابي في السودان الغربي في القرون الوسطى (ممالك غانة ومالي وسنغاي)

د. الفاتح الزين الشيخ إدريس*

تمهيد

يتناول هذا العرض التاريخي تأثير الحضارة العربية الإسلامية في رقعة تقع عند التخوم الجنوبية من الدولة العربية لأ وهي السودان الغربي -حوضا نهر ي السنغال والنيجر المعروفان باسم الساحل والحوض- التي تعاقبت فيهما حتي نهاية القرن السادس عشر ثلاث ممالك عريقة هي : غانة ومالي وسنغاي. وقد شهدت هذه المنطقة بداية تأثيرات الحضارة العربية الإسلامية منذ أن توطد الحكم العربي في الشمال الإفريقي أي منذ مطلع القرن الثامن للميلاد ، وظلّت هذه التأثيرات في ازدياد بفضل نشاط التجار المغاربة عبر الصحراء الكبرى ، حيث لنشاطهم واستقرارهم أكبر الأثر في انتشار الإللام بين قبائل الصحراء الكبرى (صنهاجة الصحراء) وفي الجهات التي ارتادوها من إقليم السودان الغربي . ومما يجدر التنويه به أن المصادر العربية- كتب الجغرافيا و الرحلات وكتب الطبقات والتراجم - هي المصادر المكتوبة الوحيدة المتوافرة عن تاريخ السودان الغربي في القرون الوسطى ، وذلك لأن قبائل السودان الغربي لم تكن تعرف الكتابة آنذاك. وهذه المصادر هي في حد ذاتها مساهمة عربية كبيرة في ميدان الحضارة . إن أهم هذه المصادر هو ما صنّفه ابن حوقل (القرن العاشر الميلادي) ، وابو عبيد البكري (القرن الحادي عشر) والشريف الإدريسي (القرن الثاني عشر) وابن سعيد المغربي (القرن الثالث عشر) وابن بطوطة والعمر ي وابن خلدون (القرن الرابع عشر) والقلقشندي (القرن الخامس عشر) والحسن الوزان - المعروف بليو الإفريقي - (القرن

* جامعة الخرطوم - كلية الآداب - قسم التاريخ.

السادس عشر) ومن أهل السودان ذاته عبد الرحمن السعدي صاحب تاريخ السودان ، ومحمود كعت صاحب تاريخ الفناش وقد عاشا في أوائل القرن السابع عشر ، والفيق المعروف أحمدبابا التتيكتي الذي عاش في أواخر القرن السادس عشر وأوائل القرن السابع عشر، ومن أشهر مؤلفاته كتاب - نيل الابتهاج بتطريز الديباج - هذا فضلاً عما تتضمنه كتب الطبقات والتراجم ، والتتبع فيها أهل المغرب، من نتف قيمة عن اتصال فقهاء المسلمين وتجارهم ببلاد السودان .

ومما ينبغي تأكيده أن انتشار الإسلام في السودان الغربي لم يتم عن طريق افتتاح العرب لذلك الإقليم ، بل تمّ سلمياً عن طريق التجار المسلمين ، ومن بلاد المغرب بصفة خاصة ، الذين كانوا يتوافدون على أطراف السودان الغربي بقصد التجارة يبعث أقاموا محطات وأسواقاً يتبادلون فيها السلع مع أهل السودان . وكان الإسلام ينتشر على أيديهم ، لا عن طريق التبشير ، بل عن طريق الاحتكاك بين الملوك ورجال ممالكهم من الوثنيين . كما ساعد ذلك قيام دولة المرابطين في غربي الصحراء الكبرى في منتصف القرن الحادي عشر الميلادي - وهي دولة قائمة على الجهاد ونشر الإسلام - كان ذا أثر مهفي انتشار الإسلام في منطقة الصحراء الكبرى الغربية ، بين السودان في حوض السنغال وأعلى النيجر . وأخيراً أسلم ملوكهم والكثيرون من رعاياهم ، واضطلعوا هم أنفسهم بنشر الإسلام في أوطانهم بعد المرحلة الأولى من انتشاره في السودان الغربي .

ثم إن انتشار الإسلام في السودان الغربي كان عاملاً من عوامل الوحدة بين قبائله، كما أن الفوارق العنصرية والقبلية في هذه المنطقة الشاسعة أضعف من حدتها للإسلام واللغة العربية كلغة التعليم والثقافة في معاهد المدن السودانية كتمبكتو وجنّي ولغة التأليف في المواضيع الفقهية والتاريخية¹

كما وطد السلاطين المسلمون سلطانهم التقليدي وأتاح الدين الجديد للسلطان المسلم الطموح "عقيدة ورايةً وسلاحاً وتبريراً في بعض الأحيان لافتتاح الممالك الوثنية المجاورة لأراضيه² . هذا وكان لانتشار الإسلام والثقافة الإسلامية فضلٌ في حل مشكلة داخلية كبرى طالما واجهت دول السودان الغربي ألا وهي مشكلة القبلية والولاء القبلي ، فعمد

السلطين المسلمين إلى إقامة إدارة مركزية لاتقوم على صلة القرابة أو القبيلة، ومع ازدياد عدد المدارس الإسلامية ظهرت إلى حيز الوجود فئة من المتقنين المسلمين اعتمد عليها السلطان في تنظيم حكومته³.

التجارة وطرق القوافل عبر الصحرا

كانت ثمة أربع طرق رئيسية للقوافل من بلاد المغرب عبر الصحراء الكبرى، إحداهما تحاذي ساحل المحيط وتنتهي في السنغال (تكرور وسلي) والثانية من سلجماسة في جنوب المغرب الأقصى بتهارة بتغازة وتنتهي في أودغست عند الحافة الجنوبية للصحراء الكبرى، وطريق ثالث كانت تبدأ من تاهرت عاصمة الرستميين وتنتهي إما في تغازة وأودغست وإما في تادمكة (المعروفة اليوم بالسوق) ومنها إلى كوكو/ جاو - Gao - في سنغاي عند منحنى نهر النيجر. أما الطريق الرابعة فكانت تبدأ من إفريقية (القيروان أو طرابلس الغرب) وتمريغدامس وتادمكة وتنتهي عند نهر النيجر أو في كانم (منطقة بحيرة تشاد) مارةً بفزان⁴. وبواسطة هذه الطرق كان ذهب السودان يصل إلى بلاد المغرب، ومنه إلى بقية أنحاء العالم الإسلامي. وكان هذا الذهب مصدر رخاء وازدهار لكثير من الدول الإسلامية التي قامت في حواضر المغرب كسلجماسة وتاهرت والقيروان ومراكش وكذلك الأندلس. وكانت السلع الرئيسية التي تنقلها القوافل إلى السودان الغربي تشمل الحبوب والتمور والأقمشة والمصنوعات المعدنية والجلدية وصنوفاً من الذّظم من الزجاج والأصداف والخواتم والقطران والأخشاب والعطور والملح الذي كان السودان في أمس الحاجة إليه إذ لم يستطيعوا إنتاجه. ويذكر الإدريسي وهو من أبناء سبته، أن بمدينة سبته سوقاً للمرجان وحكه وصنعه خرزاً وتقبه وتنظيمه.... وأكثر ما يحمل إلى غانه وجميع بلاد السودان لأنه في هذه البلاد يستعمل كثيراً⁵. وكان التجار يستبدلون هذه السلع بغلات السودان، وهي الذهب والعاج والأبنوس إلا أن السلعة الرئيسية كانت تبر الذهب من مناجمه في نقازة في حوض نهر السنغال.

وكانت التجارة بين المغرب والسودان الغربي قائمةً على نطاق واسع حتى إن نظام الصكوك استحدث تيسيراً للعمليات التجارية. يقول ابن حوقل: "ولقد رأيت بأودغست صكاً

في ذكر حق لبعضهم على رجل من تجار أودغست وهو من سجلماسة باثنين واربعين ألف دينار . وما رأيت ولا سمعت بالمشرق لهذه الحكاية شبيهاً ولا نظيراً ولقد حكيتها بالعراق وفارس وخراسان فاستطرفت⁶ . " وتلقيت الطبقات و السير ضوءاً على موضوع تجارة القوافل واتصال أهل المغرب ببلاد السودان منذ وقت مبكر . ففي كتاب (المعيار المعرب) للونشريسي مثلاً فتويان للفقير القيرواني البارز القابسي / ابن القابسي - ت 403 هجريه 1012م - فيهما دلالة ثابتة على قيام تبادل تجاري منذ أواخر القرن العاشر الميلادي بين إفريقية وبلاد السودان، التي كان ما يزال معظم سكانها من الوثنيين وتتداول الفتوى الأولى موضوع عقد قراض تم في القيروان مع شخص توجه إلى تادمكة ومنها توجه إلى غانة وأودغست حيث تزوج ورزق لطفالاً وغاب عن موطنه إحدى عشرة سنة ، وكان عليه دين في بلده ، وبعد وفاته باع القاضي ممتلكاته فتقدم صاحب القراض يطالب بحقه كدائن . وتداول الفتوى الثانية حول نزاع بشأن ميراث لتاجر من إفريقية توفي في بلاد السودان دون أن يترك وصية⁷ . ومما يذكر أن بلأ يزيد مخلد بن كيداد الثائر على العبيديين في إفريقية في منتصف القرن العاشر الميلادي كان يشار إليه بالحبشي الأسود . إذ ولد لتاجر من منطقة الجريد بإفريقية من جارية سودانية في تادمكة . كما أن مؤسس دولة بني مدرار بسجلماسة كان من أصل سوداني⁸ . كل ذلك يدل على اتصال المغاربة ببلاد السودان منذ وقت مبكر واختلاطهم مع أهلها .

الإسلام في غانة وتكرور

إن مملكة غانة القديمة كانت تشغل المنطقة الواقعة عند الطرف الجنوبي من الصحراء الكبرى إلى الشمال مباشرة من أعالي نهر ي السنغال والنيجر ، فهي تبعد نحو خمسمائة ميل إلى الشمال الغربي من أقرب نقطة عند حدود دولة غانة الحديثة التي اتخذت اسمها منها بوصفها أعرق ممالك السودان .

إن المعلومات المتوافرة لدينا عن مملكة غانة القديمة ، التي بلغت أوجها في القرن العاشر الميلادي ، مستمدة مما كتبه الجغرافيون العرب وخصوصاً ابن حوقل والبكري . وكان الاسم يطلق على الملوك وكذلك على البلاد وعاصمتها . وقد اندثرت مدينة

غانة إلا أن الحفريات الأخيرة اهتدت إلى موقع الحي الإسلامي منها في كمبي - صالح (جنوب موريتانيا) وعثر فيه عليحجارة عليها كتابات عربية تتضمن آياتٍ من القرآن الكريم .⁹

كان رخاء مملكة غانة يقوم بالدرجة الأولى على سيطرتها على تجارة الذهب , ولذلك عُرِفَت ببلاد الذهب يقول ابن حوقل : " وغانة أيسر من على وجه الأرض من ملوكها بما لديهم من الأموال المدخرة من التبر المثار وحاجتهم إلى ملوك اودغست ماسّةً من أجل الملح الخارج إليهم من ناحية الإسلام , فإنه لاقوام لهم إلا به ... " ¹⁰ أن أوفى المعلومات عن مملكة غانة في القرن الحادي عشر هي تلك التي أوردها أبو عبيد البكري الذي فرغ من تأليف كتابه (المسالك والممالك) سنة 460هجرية/ 1068م ، وهو وإن لم يبرح موطنه الأندلس إلا أنه إستمد معلوماته عن حاضرة غانة من التجار المغاربة الذين عرفوا المدينة جيداً بحكم ترددهم عليها يقول البكري: "ومدينة غانة مدينتان سهليتان إحداهما المدينة التي يسكنها المسلمون وهي مدينة كبيرة فيها اثنا عشر مسجداً أحدها يجُ معون فيه ، ولها الأئمة والمؤذنون والتبون وفيها فقهاء وحملة عٍ لم... ومدينة الملك على ستة أميال من هذه وتسمى الغابة ... وفي مدينة الملك قباب وغابات وشعراء يسكن فيها سحرتهم وهم الذين يقيمون دينهم ، وفيها دكاكيرهم (أصنامهم) وقبور ملوكهم وتراجمة الملك من المسلمين وكذلك صاحب بيت ماله وأكثر وزرائه... " ¹¹ من هذا يتبين أن الملك وأغلبية رعيته كانوا وثنيين ، وأن الملك كان متسامحاً مع المسلمين بحيث أذن لهم ببناء مدينة خاصة بهم وفيها مساجدهم ، كما اعتمد علي المسلمين في إدارة مملكته ، وهذا يذكرنا بملوك النورمان في جزيرة صقلية الذين ظلوا قرناً من الزمن بعد استيلائهم علي الجزيرة من أيدي المسلمين ، يعتمدون كل الاعتماد على المسلمين في بلاطهم وتصريف شؤونهم الإدارية والمالية ¹² ويتحدث البكري عن ممثل الرعيه امام الملك في غانة فيقول : " فإذا دنا أهل دينه منه جثوا على كُبههم ونثروا التراب على رؤوسهم ، فتلك تحيتهم له ، ولما المسلمون فإنما سلامهم عليه تصفيقاً باليدين ¹³ .

وا إلى الغرب من مدينة غانة كانت مدينة تكرر التي كانت تقع عند المجرى الأدنى لنهر السنغال غير بعيد عن ساحل المحيط ، وكان أهل تكرر وتبين إلى أن أسلم ملكهم وأرجابي ابن رابيس المتوفي سنة 432 هجرية/ 1041م ويقول البكري إن أهل تكرر اليوم [أي سنة 460 هجرية../ 1068م] مسلمون¹⁴. " إن التكاير كانوا أول من اعتنق الإسلام من أهل السودان الغربي وعملوا بنشاط على نشره بين القبائل المجاورة لهم ، وصبحت التسمية تكرر مرادفةً للسودان الغربي عند المؤرخين العرب بعد القرن الرابع عشر . وعن أثر احتكاك التكاير بالمغاربة يقول ابن سعيد : " ومن خالط البيض - أي المغاربة - وتحضر اتخذ لباسه من الصوف والقطن وذلك مجلوب له... وبأديتهم عراة ، المسلمون منهم يسترون فروجهم بعظام أو جلود والكفار لا يستترون ."¹⁵

المرابطون والسودان الغربي

حتى ظهور المرابطين على المسرح في غرب إفريقيا في منتصف القرن الخامس الهجري/ الحادي عشر الميلادي ، كان الإسلام ينتشر وباطراد في غرب إفريقيا جنوبي الصحراء على أيدي التجار المغاربة . وكانت توجد جاليات إسلامية في كثير من المراكز والأسواق على طرق القوافل عبر الصحراء من المغرب إلى بلاد غانة . قامت دولة المرابطين أساساً في الطرف الغربي من الصحراء الكبرى مما يلي المغرب الأقصى جنوباً بفضل جهود الفقيه المالكي المصلح عبد الله بن ياسين وكانت قوامها قبائل صنهاجة الصحراء الثلاث لمتونة وجدالة ومسوفة . وكان طابع هذه الدولة منذ نشأتها كما يستدل من اسمها، الجهاد في سبيل الله ونشر الإسلام والقضاء على البدع وعبادة الأوثان . يقول ابن أبي زرع الفاسي إن عبد الله بن ياسين لما رأى باديء الأمر إعراض صنهاجة عنه : " أراد الرحيل عنهم إلى بلاد السودان الذين دخلوا في الإسلام ، إذ كان الإسلام بها قد ظهر ."¹⁶ وبعدها هدأ الأمير المرابطي بؤ بكر بن عمر قبائل صنهاجة وأقرّ الوئام بينها " جمع جيوشاً كثيرة وخرج إلى غزو بلاد السودان فجاهدهم حتى فتح بلادهم مسيرة ثلاثة شهور "¹⁷ . ولما استقل ابن عمه يوسف بن تاشفين في المغرب الأقصى انصرف أبو بكر إلى الصحراء فأقام بها مدةً يجاهد الكفرة من أهل السودان إلى أن استشهد رحمه الله في

بعض غزواته رُمي بسهم مسموم فمات رحمه الله ، وذلك في شهر شعبان المكرم سنة ثمانين وأربعمائة هجرية [1087م] بعد أن استقام له أمر بلاد الصحراء إلى جبال الذهب من بلاد السودان¹⁸ .

إن جهاد المرابطين في الجنوب أدى إلى إستيلائهم على اودغست سنة 1054م من ملك غانة. كما أدى إلى استيلائهم على عاصمته غانة ذاتها سنة 1076م والقضاء نهائياً على مملكته الوثنية . وقد أسلم أهلها المعروفون بالسونكي وانتشروا في المناطق المجاورة يزاولون التجارة ، وإليهم يعود الفضل في نشر الإسلام في مناطق كثيرة من السودان الغربي.

ومع أن السيادة المرابطية على إقليم غانة كانت قصيرة الأمد لانشغال المرابطين بشؤون المغرب الأقصى والأندلس . إلا أن الإشارات في المصادر العربية تدل على وجود علاقات مستمرة بين المرابطين في المغرب الأقصى وبعض حكام السودان . مع ملاحظة أن الوحدة التي أقامها المرابطون في المغرب الإسلامي من الأندلس إلى بلاد السودان تنبئ من اكتشاف عدد من شواهد قبور إسلامية يرجع تاريخها إلى العقد الأول من القرن الثاني عشر (1100 - 1110م) يُدعى رجح أن تكو قد نُحتت ودُقشت كتابتها في الأندلس ثم نُقلت عبر الصحراء لتقام على أضرحة ملكين وملكة في مدينة كوكو / جاو - Gao - وكانوا قد أسلموا حديثاً¹⁹ .

لقد اشتهر للإلام بين قبائل غانة بعد مَقدَم المرابطين ، يؤكد ذلك ما يذكره الإدريسي بعد قرن من رواية البكري إذ يقول إن غانة " يقصدها التجار المياسير من جميع البلاد المحيطة بها من سائر بلاد المغرب الأقصى وأهلها مسلمون"²⁰ . ويضيف ابن سعيد أن ملك غانة " كثير الجهاد للكفار وبذلك عرف به"²¹ . ومما يذكر أن المتقال / الدينار المرابطي كان واسع الانتشار بين النصارى في شمال اسبانيا وقد عُرف في القشتالية القديمة والبرتغالية باسم

(metcal, metical, mitical) وكلها صيغ مشتقة من متقال العربية . فالمرابطون وقد امتدت امبراطوريتهم من نهر إبرو إلى نهر السنغال وسيطروا على مواطن الذهب في

غانة وعلى تجارة القوافل عبر الصحراء ، ضربوا في كل من الأندلس والمغرب الأقصى دنانير من الذهب الخالص ، وكان عليها إقبال كبير خارج إمبراطوريتهم وقد قلدها الفونسو الثامن ملك قشتالة وليون ، الذي ضرب دنانير على غرارها اعتباراً من سنة 1173م وعُرِفَت باسم (Le morabeti alfonsi) كما أن الدنانير ظلت تُعرف باسم (maravedis) في ممالك إسبانيا المسيحية حتى أواخر القرون الوسطى²² . ولعل من الجدير بالذكر أن الرحالة ابن فاطمة الذي نقل عنه ابن سعيد وابن خلدون كثيراً من أخبار السودان وما وراءه من الأقاليم هو من أبناء السودان الغربي – السنغال أو غانة – وقد عاش في القرن السادس الهجري / الثاني عشر الميلادي أي قبل ابن سعيد بقليل ولم تصلنا من كتابه الذي لُفِه باللغة العربية سوى النقول التي أوردها ابن سعيد وابن خلدون وهي تدل على دقة اطلاعه بأحوال السودان الغربي²³ .

الإسلام في مالي (1238 - 1488م)

نظراً لتحول أنظار المرابطين نحو الشمال ونتيجة لما نشب من خلاف بين قبائل صنهاجة الصحراء عادت غانة للظهور ثانية ولكن على نطاق أضيق رقعةً وأقل سطوة من قبل ، ولم تلبث أن تجزأت وآل تراثها آخر الأمر إلى زعيم إحدى قبائل ماندي القاطنة في وادي النيجر الأعلى .

إن إمبراطورية مالي التي ازدهرت في القرنين الثالث عشر والرابع عشر الميلاديين كانت نواتها الأولى قبائل ماندينكا (Mandinka) القاطنة في الرقعة والواقعة إلى الجنوب من غانة ما بين أعالي نهر ي النيجر والسنغال . وكانت مالي معروفة في القرن الحادي عشر يسميها البكر بـ "لل" ، ويحدثنا عن إسلام ملكها آنذاك فيقول: " وملكهم يعرف بالمسلماني ولما سمي بذلك لأن بلاده أُجديت عاماً بعد عام ، فاستسقوا بقرابينهم من البقر حتى أدوا يفنونها ولا يزدادون الا قحطاً وشقاءً ، وكان عنده ضيف من المسلمين يقرأ القرآن ويعلم السنة ، فشكا إليه الملك مادهمهم من ذلك فقال له : ايها الملك لو آمنت بالله تعالى وأقررت بوحدانيته وبمحمد عليه الصلاة والسلام وأقررت برسالته واعتقدت شرائع الإسلام كلها لرجوت الفرج مما أنت فيه وحل بك ، وأن تعم الرحمة أهل بلدك وأن يحسدك

على ذلك من عاداك وناواك ، فلم يزل به حتى أسلم وأخلص نيته وأقرأه من كتاب الله ما تيسر عليه وعلمه من الفرائض والسنن ما لايسع جهله ، ثم استأنا به الي ليلة جمعة فأمره فتطهر فيها طهراً سابغاً وألبسه للمسلم ثوب قطن كان عنده، وبرزوا إلى ربوة من الأرض ، فقام المسلم يصلي والملك عن يمينه يأتيه به ، فصليا من الليل ما شاء الله والمسلم يدعو الله والملك يؤمن . فما انفجر الصباح الا والله قد أعمهم بالسقي . فأمر الملك بكسر الدكاكير - أي الأصنام وإخراج السحر من بلادهم وصح إسلامه وإسلام عقبه وخاصته وأهل مملكته مشركون.²⁴

يبدأ تاريخ مالي بالملك سندياتا (1230-1255م) الذي اتخذ لنفسه عاصمة جديدة هي نياني وتلقب بمنسي أي سلطان . وكانت الامبراطورية الجديدة مترامية الأطراف من العاصمة نياني على نهر النيجر الأعلى إلى المحيط غرباً . وكانت تمتد شرقاً بمحاذاة وادي النيجر إلى حدود بلاد الحوسا ، وكانت تضم مصادر الثروة المعدنية الرئيسية كمناجم الملح في تغازة ، ومناجم النحاس في تكدا ، ومناجم الذهب في الجنوب ، كما اشتملت على المدن التجارية المهمة وهي ولاتة وجنّي و كوكو . ويبدو أن سندياتا كان وثياً في أول حكمه ، إلا أنه لم يلبث أن اعتنق الإسلام وحتى نهاية الامبراطورية في أواخر القرن الرابع عشر كان كل سلاطين مالي من المسلمين وأدى كثير منهم فريضة الحج . إن أشهر سلاطين مالي منسي موسي (حكم 1321 - 1337م) الذي اشتهر بالورع والتقوى ، وفي عهده شهدت مالي رخاءها وازدهارها

أدى منسي موسي فريضة الحج إلى مكة المكرمة عام 1324م، فعزز ذلك من مكانة الإسلام في البلاد ، وأشاع أخبار ثرائها بالذهب في أرجاء العالم الإسلامي بل وفي اوربا واجتذب إلى بلاده الكثيرين من التجار والعلماء المسلمين الذين ساهموا في تنمية البلاد اقتصادياً وثقافياً . وفي الطريق إلى مكرّم منسي موسي وركبه الغفير بأوجلة وسرت ثم توجه بالطريق الساحلي إلى القاهرة . وقيل إنه طحّب معه مائة حمل ذهباً أنفقها في سفرته وقد قدّم للخزانة السلطانية في القاهرة حملاً من التبر ، ولم يترك أميراً ولا ربّ وظيفة إلا ونفحه بالذهب ، مما أدى إلى هبوط سعر الذهب في مصر²⁵ .

واصطحب منسي موسى معه عند عودته من الحج عدداً من العلماء المسلمين ، وابتاع جملةً من الكتب الدينية ليوفر لبلاده الثقافة الإسلامية ، وفي أثناء مقامه بمكة المكرمة اتصل منسي موسى بالشاعر والمهندس الأندلسي الأصل " أبو إسحاق إبراهيم الساحلي " (توفي في تمبكتو وفيها ضريحه) واصطحبه السلطان معه إلى مالي وكلفه بتشديد عدد من المساجد .

والقصور في تمبكتو وكوكو وغيرهما من المدن ، فشيدها بالآجر الذي لم يكن معروفاً من قبل في السودان، وأدخل إلى السودان الغربي طراز البناء المغربي الأندلسي. وقد عمل منسي موسى على توطيد علاقاته بالممالك الإسلامية في مصر وتونس والمغرب الأقصى ، وكان للتجارة كما عرف أهل مالي ، جالية كبيرة في مصر وخصص لهم في الجامع زاهراً رواقاً عرف باسمهم²⁶ .

وقد نُشرت في جزيرة ميورقة في أواخر القرن الرابع عشر مجموعة من الخرائط لإفريقيا ظهرت فيها لأول مرة مواقع تمبكتو وكوكو في مالي . التي كان قد تناهي إلى مسامع الأوربيين نها أسواق غنية بالذهب ولكنها نائية ، ومن هنا جاء التعبير الانجليزي (From here to Timbuktu) للدلالة على مكان بعيد جداً²⁷ ، وأهم هذه الخرائط الميورقية المصور القطالاني (Catalan Atlas) لإبراهيم كريسك (Abraham Cresque) الذي أذاع شهرة منسي موسى في أوروبا في وقتٍ تناقص فيه كثيراً احتياطي أوروبا من الذهب فاتجه تفكير الناس إلى إفريقيا باعتبارها مصدر الذهب الوارد إلى أوروبا عن طريق بلدان المغرب²⁸ . ومما يذكر أن التسمية ماندينج (Manding) تشمل اليوم عدداً من شعوب غرب إفريقيا تتكلم لهجات مشتقة من نفس اللغة التي استعملت في كتابتها حروف عربية بشيء من التحوير . ويذكر القلقشندي أن كتابة أهل مالي بالخط العربي على طريقة المغاربة²⁹ . ويقول الدكالي إن لباس أهل مالي عمائم بحنك ولباسهم شبيه بلباس أهل المغرب جلاباب ودراريع بلا تفرج . ويركب أهل مالي الخيول بالسروج وهم في غالب أحوالهم في الركوب كأنهم العرب³⁰ .

لدينا مادةٌ وفيرةٌ عن مالي في منتصف القرن الرابع عشر وعن سلطانها منسي سليمان شقيق منسي موسى . فبالإضافة إلى ما ذكره العمري . لدينا معلومات من شاهد عيان هو الرحالة المغربي الشهير ابن بطوطة الذي أمضى أكثر من تسعة أشهر في زيارة مالي (1352-1353م) ورواية ابن بطوطة تدل على أن الإسلام كان قد توطد في مالي ، ومع ذلك فإن السلطان كان يراعي العادات والتقاليد المحلية المنتشرة بين الوثنيين من رعيته . وقد أعجب ابن بطوطة باستتباب الأمن والعدالة في مالي كما أعجب بتدين القوم وأدائهم الصلوات وحفظهم للقرآن الكريم . ومما يدل على عدم وجود أي تمييز عند المسلمين ما ذكره ابن بطوطة من أن ابن كبير جماعة البيضان (أي المغاربة) في عاصمة مالي - محمد ابن الفقيه الجزولي - كان متزوجاً من ابنة عم السلطان ³¹ .

يلاحظ كذلك أن المساجد كانت حراماً يلجأ إليها المستجيرون من بطش الحاكم ، فإبن بطوطة يذكر أن منسي سليمان غضب على زوجته الكبرى وابنة عمه قاسا إذ اتهمها بتدبير مؤامرة ضده " فخافت ".... واستجارت بدار الخطيب . وعادتهم أن يستجروا هنالك بالمسجد وإن لم يتمكن فدار الخطيب ³² . وكان علماء المسلمين يبادرون إلى الإصلاح بين المتنازعين حقناً للدماء ، فابن بطوطة يذكر أنه أثناء إقامته بتكدا توجه القاضي و الخطيب و المدرس والشيخ بها إلى أميرها للإصلاح بينه وبين أمير آخر ³³ .

ووجز ابن بطوطة محاسن السودان فيقول : " فمن أفعالهم الحسنة قلة الظلم ومنها شمول الأمن في بلادهم ومنها عدم تعرضهم لمال من يموت ببلادهم من البيضان ولو كان القناطير المقتطرة ، إنما يتركونه بيد ثقة من البيضان حتى يأخذه مستحقه . ومنها مواظبتهم على الصلوات والتزامهم بها في الجماعات وضربهم أولادهم عليها . وإذا كان يوم الجمعة ولم يبكر الإنسان إلى المسجد ، لم يجد أين يصلي لكثرة الزحام، ومن عاداتهم أن يبعث كل إنسان غلامه بسجاده فيبسطها له بموضع يستحقه بها حتى يذهب إلى المسجد .. ومنها لباسهم الثياب البيض الحسان يوم الجمعة ولو لم يكن لأحد منهم قميص خَلِقٌ " غسله ونظفه وشهد به الجمعة . ومنها عنايتهم بحفظ القرآن

العظيم ، وهم يجعلون لأولادهم القبول إذا ظهر في حقهم التقصير في حفظه فلا تفك عنهم حتى يحفظوه ... »³⁴

الإسلام في امبراطورية سنغاي (1468-1591م)

كان من نتيجة الضعف الذي أصاب إمبراطورية مالي بعد وفاة منسي سليمان، (ت1360م) بسبب المنازعات بين أفراد البيت المالک ، أن استقل أحد أقاليمها وهو سنغاي ثم أخذ هذا الأقليم يتوسع على حساب مالي في القرن الخامس عشر ، وكان أول من أسلم من ملوكهم كوساي وكان ذلك سنة 400 هجرية 1010 ميلادية وسمي بلغة سنغاي مسلم - دام (Muslim Dam) ومنه يفهم أنه اعتنق للإسلام مختاراً لا مكرهاً ومن بعده كان ملوك سنغاي كلهم يحملون أسماء إسلامية³⁵ ويمكن اعتبار سُدِّي علي مؤسس امبراطورية سنغاي وهو الذي استولى على تمبكتو سنة 1468م من أيدي الطوارق . وكان قاسياً في معاملته لسكانها وفقهائها مما جعل مؤرخي تمبكتو يحملون عليه ويشككون في إسلامه . وقد اتخذ سُدِّي مدينة كوكو (Gao) عاصمة له على منحنى نهر النيجر وهي تبعد نحو سبعمائة كيلو متر شرقاً من نيامي عاصمة مالي. وفي سنة 1493م استولى على السلطة طُذ القادة العسكريين وهو محمد توري فأسس أسرة حاكمة عرفت باسم أسكيا محمد ، وقد بلغت سنغاي ذروة قوتها وازدهارها في عهد أسكيا محمد (حكم 1493-1528م) وزادت رقعتها على رقعة امبراطورية مالي، وامتدت حدودها إلى المغرب الأقصى تقريباً وشملت مناجم الملح في تغازة وكانت أراضيها شرقاً تشمل بلاد الحوسا وتتصل باراضي سلطنة بورنو³⁶ . كان أسكيا

محمد متحمساً للإسلام وعلمائه ، ومع ذلك فقد أبدى تسامحاً نحو الوثنيين من رعاياه ، ولم يحملهم على الإسلام ، وتتمثل الخدمة التي أسداها أسكيا محمد للإسلام في المقام الأول في تنمية تمبكتو كمركز للعلوم الإسلامية ، واتخاذ الإسلام ديناً رسمياً للامبراطورية . وتوافد طلبة العلم والفقهاء على تمبكتو بأعداد كبيرة نظراً لما لُقُوهُ من تشجيع ورعاية من جانب أسكيا محمد الذي كان كثيراً ما يزور العلماء المسلمين في تمبكتو ويستشيرهم³⁷ .

وكما فعل منسي موسى من قبله ، قام أسكيا محمد بالحج إلى مكة المكرمة سنة 1496-1497م ، وأثناء مقامه بمكة المكرمة وهب مائة ألف دينار ذهباً على سبيل الصدقة ، وأوقف مثلها على بناء زُزل يُقيم فيه الحجاج من بلاد السودان . وفي مكة المكرمة قلّده شريف مكة العباس " خلافة بلاد تكرور " أي السودان الغربي ، فكان ذلك مما عزّز من مكانة أسكيا محمد في أعين العلماء ورجال الدين وزاره الصقلي ابن أخ الشريف في تمبكتو سنة 1519م حيث وُجّه وعُرِفَت ذريته بالشرفاء عند أهل السودان³⁸ . وكان الفقيه والمصلح التلمساني محمد ابن عبد الكريم المغيلي على اتصال بأسكيا محمد الذي دعاه لزيارة كوكو سنة 502هـ أي 1109م ، وكان قد أمضى أيام شبابه في توات في وسط الصحراء حيث كان أكبر داعية للإسلام بين قبائل الطوارق ، ثم انتقل إلى بلاد الحوسا واستمر في دعوته ، وقد وجه إليه أسكيا محمد بعض الأسئلة عن عدد من الأمور الدينية وخصوصاً حول من يستشير ، وكيف يقرر ماذا كان شخص ما كافراً ، وكيف يشرع للمسائل الاجتماعية بمقتضى الشريعة الإسلامية وقد أعد المغيلي إجابات مسهبة استسخت وذاعت شهرتها في أرجاء إمبراطورية سنغاي وفي بلاد الحوسا ، وكان لآراء المغيلي هذه أثر مباشر بعد ثلاثة قرون على الزعيم الفولاني عثمان دان فوديو ، الذي استند إليها في تبرير الجهاد الذي أعلنه في أوائل القرن التاسع عشر³⁹ وقد عُثِر في كاتسينا بشمال نيجيريا في الثلاثينيات من هذا القرن على نسخة من رسالة وضعها المغيلي لأمير كانو عن التزامات السلاطين وواجباتهم . " إن احتجاج السلطان عن رعيته مصدر كل شر " عبارة كثيراً ما تتردد في الرسالة ، فالمغيلي يحث السلطان أو الأمير على ضرورة الاتصال المباشر والمستمر برعيته⁴⁰ .

مدينة تمبكتو حاضرة إسلامية زاهرة

تأسست على نهر النيجر الأعلى ديتان قُدِر لهما في القرون التالية أن تؤثر تأثيراً قوياً على انتشار الإسلام في السودان الغربي ، إحداهما مدينة جنّي (Jenne) التي تأسست سنة 435هـ - 1044م ، والتي قُدِر لها أن تصبح مركزاً تجارياً مهماً ، والمدينة

الثانية هي تمبكتو المركز المهم لتجارة القوافل مع بلاد المغرب ، وقد تأسست حوالي سنة 1100م على أيدي لطوارق ، وقد كانت تمبكتو مدينة إسلامية منذ البداية ، وكما يقول السعدي لم تدنّسها عبادة الأوثان ولم يسجد فيها لغير الرحمن قط . وأصبحت تمبكتو في القرن السادس عشر منارة للعلوم والثقافة الإسلامية في السودان الغربي ، وتوافد عليها الطلبة والفقهاء مدفوعين بما كانوا يلقونه فيها من تشجيع ورعاية⁴¹ . وقد بلغ عدد المدارس القرآنية في تمبكتو في أواخر القرن السادس عشر مائة وخمسين مدرسة⁴² .

إن العلوم الإسلامية ظلت مزدهرة في تمبكتو إلي حين وقوع الحملة المراكشية سنة 1591م وهي الحملة التي أدت إلى انهيار إمبراطورية سنغاي ، وخلقت وضعاً اقتصادياً واجتماعياً لا يشجع على متابعة التحصيل وطلب العلم⁴³ . وكانت تمبكتو " يومئذ لانظير لها في البلدان من بلاد السودان إلى أقصى بلاد المغرب وكان أهلها من أكثر الناس تطفأً بطلبة العلم وابعانهم ... كذُر قراؤها وأدباؤها من كوكو إلى جني"⁴⁴ . لقد ظلت المراكز الحضارية بالسودان الغربي حتى القرن السادس عشر هي المدن التي كان يفتد إليها ويقطنها كثير من تجار المغرب . وفي ذلك القرن بلغت تمبكتو وأجها الحضاري ، واصطبغت مبانيها بالطابع المعماري المغربي الأندلسي ، كما نقله إليها الأديب والمهندس الأندلسي أبو إسحاق إبراهيم الساحلي⁴⁵ . وتمبكتو " ما أنتها العمارة إلا من المغرب سواء في الديانات أو المعاملات"⁴⁶ . ضمت تمبكتو آنذاك ثلاثة مساجد كبيرة أشهرها مسجد سنكُري الذي كان بمثابة جامعة السودان الغربي كله . وتوارد على تمبكتو عدد من الأساتذة من بلدان المغرب أبرزهم محمد بن عبد الكريم المغيلي ، وسيدي يحيى التادلسي . ويلاحظ الدكتور عبد القادر زيادية " أن عدداً من المؤلفات المغربية عرفت في تمبكتو خلال تلك الفترة ولم تُعرف في المشرق مثل جامع المعيار للونشريسي وأرجوزة المغيلي في المنطق ، فقد كانا من بين المصنفات التي كان يتناولها المدرسون بالشرح لطلابهم في مساجد تمبكتو"⁴⁷ . وقد زار تمبكتو في أوائل القرن السادس عشر الحسن بن محمد الوزان - المعروف لدى الأوربيين باسم ليو الإفريقي Leo Africanus - وهو عربي غرناطي المولد مغربي النشأة ، وساهم في كتابه عن وصف إفريقيا في التعريف بالسودان

الغربي الذي اشتهر عند الاوربيين إذ ذاك بوفرة الذهب . يقول الوزان إن أفضل الخيول تأتي من المغرب وبمجرد ما يسمع صاحب تمبكتو عن وصول تجار مغاربة إلى المدينة ومعهم الخيول كان يأمر بإحضار عدد منها فيختار لنفسه أجود حصان منها ويدفع فيه ثمناً سخياً .⁴⁸

ويضيف الوزان أن في تمبكتو عدداً كبيراً من العلماء والفقهاء . وهم يلقون كل رعاية من السلطان وتصل إلى المدينة من المغرب مخطوطات وكتب متنوعة وتباع بأثمان تفوق أثمان غيرها من السلع⁴⁹ , ولعل أوفى ما وصلنا من مصادر خاصة بأمبراطورية سنغاي في القرن السادس عشر كتاب (تاريخ السودان) الذي صنفه عبد الرحمن السعدي من أبناء تمبكتو ، وهو ينحدر من أسرة سودانية يمتد إلى أصول مغربية ، وقد ألف كتابه باللغة العربية ، التي كانت لغة الثقافة آنذاك في السودان الغربي⁵⁰ . ثم كتاب الفتاش الذي ألفه محمود كعت التتبكتي . ومما يزيد من قيمة هذين الكتابين " أنهما يتصدیان لحقائق وأحداث شهدها العالمان وخبرات عاشها ، كما حرصا في نفس الوقت بطبيعة اشتغالهما بالثقافة والعلم على تسجيل صور الحياة الدينية والعلمية ومراكز الثقافة التي كانت منتشرة في عهديهما⁵¹ .

وختاماً لا بد من الإشارة إلى مؤرخ تمبكتو وعالمها الكبير أحمد بابا التتبكتي - ت 1627م - الذي عاش في أواخر القرن السادس عشر وأوائل القرن السابع عشر وقد ولد في تمبكتو وهو ينتمي لأثرة من قبيلة جُدالة الصنهاجية وكان أباه كلهم أئمة وقضاة في تمبكتو في القرنين الخامس عشر والسادس عشر وسرعان ما اشتهر فقيهاً في بلاده ، ولما تعرضت تمبكتو للغزوة المراكشبية سنة 1591م رفض أحمد بابا الاعتراف بسلطة سلطان المغرب مولاي أحمد المنصور السعدي فاعتقل بتهمة التحريض على الثورة ، ونقل إلى مدينة مراكش حيث أُجبر على الإقامة فيها ، وفي مدينة مراكش أخذ أحمد بابا في إلقاء دروس في الفقه والحديث وفي إصدار الفتاوى . وفي سنة 1607م رحل له بالعودة إلى مسقط رأسه ، فأدى فريضة الحج ثم عاد إلى تمبكتو وفيها توفي 1036 هجرية/1627م ، وقد ألف أحمد بابا نحو خمسين مصنفاً في الفقه المالكي والنحو ومواضيع أخرى إلا أن أهم مؤلفاته وأشهرها

الفاتح الزين الشيخ إدريس

الحضارة العربية الإسلامية

كتاب " نيل الابيهاج بطريز الديياج " وهو بمثابة صلة لكتاب ابن فرحون " **الديياج المذهب**
في علماء المذهب " عن طبقات المذهب المالكي .

الهوامش

- ¹ **Legacy of Islam** (Second Edition) Oxford 1964,P 107
- ² المصدر السابق ص 110
- ³ Oliver,R and .Fage,J.D, **A Short History of Africa**, London 1975 , P. 90
- ⁴ Lombard,M, **The Golden Age of Islam** , Amsterdam 1975 , PP,223-4
- ⁵ الإدريسي, أبو عبد الله محمد (الشريف) "وصف إفريقيا الشمالية والصحراوية", قطعة مستخرجة من كتاب **نزهة المشتاق في اختراق الافاق** . الجزائر 1965م ص 108
- ⁶ ابن حوقل , ابو القاسم محمد بن على , **صورة الأرض** , بيروت (بدون تاريخ) ص 96
- ⁷ بريت (Brett) مايكل "فتويان من أواخر القرن الرابع الهجرى تتناولان التجارة عبر الصحراء " طرابلس الغرب 1979م ص 2
- ⁸ البكرى , ابو عبيد عبد الله , "المغرب فى نكر بلاد إفريقيا والمغرب" مستخرج من كتاب **المسالك والممالك تحقيق دى سلان** , باريس 1965 , ص 149
- ⁹ **Cambridge ,History of Africa**,VOL.11,Cambridge University Press 1978 ,P674
- ¹⁰ ابن حوقل , ص 98
- ¹¹ البكرى . ص 175
- ¹² ابن جبير , ابو الحسين محمد : **رحلة ابن جبير** , بيروت 1968م , ص 268
- ¹³ البكرى , ص 176
- ¹⁴ المصدر السابق ص172
- ¹⁵ ابن سعيد , أبو الحسن على بن موسى بن سعيد المغربي , كتاب **الجغرافيا** , تحقيق إسماعيل العربى , بيروت 1970م ص 91
- ¹⁶ ابن ابى زرع الفاسى , ابو العباس احمد :**الانيس المطرب بروض القرطاس تحقيق سى . ج تورنبرغ** ابساله 1843م ص 78
- ¹⁷ المصدر السابق ص 86
- ¹⁸ المصدر السابق ص 87
- ¹⁹ **Cambridge History of Africa**, Vol .111,Cambridge University Press, 1978 , P 331
- ²⁰ الإدريسي ص 7
- ²¹ ابن سعيد ص 92
- ²² Vicens Vives Jaime , **An Economic History of Spain** , 1969 , p . 150
- ²³ مؤنس , حسين : **تاريخ الجغرافية والجغرافيين فى الاندلس** , مدريد 1967م ص 507

- ²⁴ البكرى , ص 178
- ²⁵ القلقشندى ، أبو العباس أحمد ، **صبح الأعشى فى صناعة الإنشاج** 5، القاهرة (بدون تاريخ) ص 289
- ²⁶ عبد الرحمن زكى ، **تاريخ الدول الإسلامية السودانية بإفريقية الغربية** ، القاهرة 1961م ص 123
- ²⁷ Collins, English Dictionary, London ,1979, P1520
- ²⁸ Bovill .E.W, **The Golden Trade of the Moors**, Oxford University Press 1970 P.109
- ²⁹ القلقشندى 298/5
- ³⁰ المصدر السابق 299 /5
- ³¹ ابن بطوطة , ابو عبد الله محمد : **رحلة ابن بطوطة** , بيروت 1968م ص 665
- ³² المصدر السابق ص 671
- ³³ المصدر السابق ص 679
- ³⁴ المصدر السابق ص 673
- ³⁵ Arnold Thomas, **Preaching of Islam**, London 1935 ,P318
- ³⁶ Oliver andFage , **A short history of Africa** . P 91
- ³⁷ Trimingham, J , Spencer, **A History of Islam in West Africa** , Oxford ,University P ress 1970 PP,96
- ³⁸ Ajati .F.Ade.Espie,Ian(Editors) **A Thousand Years of West African History** ,Ibadan University Press 1970 P,123
- ³⁹ المصدر السابق ص 124
- ⁴⁰ Bovill , P , 141
- ⁴¹ Arnold . PP.318-319
- ⁴² Trimingham , P . 98
- ⁴³ Ajayi . and Espie, P124
- ⁴⁴ كعت ، محمود : **تاريخ الفتناء** , باريس 1964م ص 179
- ⁴⁵ زيادية ، عبد القادر ، **ملاحم الحركة التعليمية فى تمبكتو** ، مجلة الأصالة ، العدد 53 الجزائر 1978م ص 10
- ⁴⁶ السعدى ، عبد الرحمن ، **تاريخ السودان** ، باريس 1946م ص 21
- ⁴⁷ زيادية ، عبد القادر ، المرجع السابق حاشية رقم 26 ص 15
- ⁴⁸ Bovill , PP . 147
- ⁴⁹ المصدر السابق ص 148
- ⁵⁰ جمال زكريا قاسم ، **الأصول التاريخية للعلاقات العربية الإفريقية** ، القاهرة ، ص 160
- ⁵¹ المصدر السابق ص 162

ثبت المصادر والمراجع

مراجع عربية

- 1- ابن أبي زرع الفاس أبو العباس أحمد: الأنيس المطرب بروض القرطاس ، تحقيق سي.ج أباله 1843م .
- 2- ابن بطوط أبو عبد الله : رحلة ابن بطوطة ، بدون دار نشر 1968.
- 3- ابن جبير أبو الحسن محمد: رحلة ابن جبير، بيروت 1968.
- 4- ابن حوقل: أبو القاسم محمد بن علي: صورة الأرمن ، بيروت (بدون تاريخ).
- 5- ابن حماد، أبو عبد الله محمد بن علي : أخبار ملوك بن عبيد وسيرتهم، تحقيق فوندر هايدن الجزائر 2718.
- 6- ابن سعيد أبو الحسن علي بن موسى بن سعيد المغربي: كتاب الجغرافيا ، تحقيق إسماعيل العربي، بيروت 1970.
- 7- الإدريسي ، أبو عبد الله محمد الزين: "وصف أفريقيا الشمالية الصحراوية" قطعة من كتاب نزهة المشتاق في اختراق الآفاق، الجزائر.
- 8- البكري، أبو عبدي الله: "المغرب في ذكر بلاد أفريقية والمغرب" من كتاب المسالك والممالك تحقيق دي سلان باريس 1965 .
- 9- السعدي عبد الرحمن ، تاريخ السودان ، مارس 1946.
- 10- القلقشندي أبو العباس أحمد: صحيح الأعشى في صناعة الإنشاء ، ج5 القاهرة بدون تاريخ
- 11- جمال زكريا قاسم: الأصول التاريخية للعلاقات العربية الأفريقية، القاهرة 1975م.
- 12- معاوية ، عبد القادر ، ملامح الحكم التعليمية في تمبكتو. مجلة الأصالة - العدد 53، الجزائر 1978م.
- 13- عبد الرحمن زكي: تاريخ الدولة الإسلامية السودانية بإفريقية القرنية - القاهرة 1961م.
- 14- كعت محمود ، تاريخ القتاش ، باريس 1964.
- 15- مؤنس حسين، تاريخ الجغرافية والجغرافيت في الأندلس، بدون 1967م.

المصادر غير العربية

- 1- Ajayi. F. Ade. Espe, A Thousand Years of West African History. Ibadan University press 1970
- 2- Arnold Thomas. Preaching of Islam, London – 1935.
- 3- Bovil, E. W. the Colden Trade of The moons, Oxford University, Press 1970.
- 4- Cambridge History of Africa. Vol. 11. Cambridge University Press, 1978
- 5- Lombard, M., The Golden Age of Islam, Amsterdam, 1975
- 6- Oliver. R. and Fage, J. D. , A Short History of Africa, London 1973

-
- 7- Trimingham. J. Spencer. **A History of Islam in West Africa**. Oxford University , Press 1970
 - 8- Vicens. Vives, Jaime. **An Economic History of Spain** , F. M. Lopes Morjllas, Princeton University, Press 1969.